مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٩، العدد ٣٤ (ربيع ١٩٩٨)، ص ١٢٠

الشهادة الثانية[١]

"لم يخطر في بال أحد أن ذلك سيكون الخروج الأخير"

– الاسم: رحمة داود عبد الرحمن (زوجة صالح الكايد)
– العمر: ٧٢ عاماً
– مكان الإقامة الحالي: عمّان/الأردن
– البلد الأصلي: المزيرعة/قضاء اللد
– تاريخ الاحتلال: ١٩٤٨/٧/١٢

قبل شهرين، أو ثلاثة، من احتلال اليهود لقريتنا المزيرعة، وعندما كان الإنكليز يستعدون للرحيل عن فلسطين، أذكر أن سيارة عسكرية بريطانية دخلت قريتنا وترجل منها عدد من الضباط الإنكليز، الذين بلّغوا رجال القرية أنهم يعتزمون الانسحاب من موقعهم العسكري في تلّة فينيسكي القريبة من القرية، وأخذوا يحرضون رجال القرية والقرى المجاورة على الإسراع إلى الموقع لاستلامه من قائده الإنكليزي... قبل أن يأتي اليهود فيستولوا عليه!

صدّق رجال القرية خدعة الإنكليز، واندفعوا بحماسة متسلقين ظهر الشاحنة التي ستحملهم إلى المكان.. وكانوا يهزجون كأنهم ذاهبون إلى عرس. غير أن محمد صلاح، قائد مجموعة المجاهدين في القرية، والذي كان يعمل مساعداً للشيخ حسن سلامة، وقف وصاح بهم: "ماذا تفعلون! هل تريدون أن تتركوا القرية بلا رجال؟ ثم ماذا لو كان في الأمر خديعة! هل نيتِّم كل أطفال القرية؟" وأمر عدداً منهم بالنزول من الشاحنة، كان بينهم زوجي صالح الكايد (أبو كايد) الذي كان يعمل تحت إمرة محمد صلاح.

---

[١] أعدّها فاروق وادي. وقد أُجريت المقابلة في عمّان، في شباط/فبراير ١٩٩٨.

استقل محمد صلاح الشاحنة توافقه مجموعة من مجاهدي القرية المسلحين بالبنادق "والستنّات"، وانطلقت بعد أن انضمّت إليها شاحنات أُخرى تحمل أبناء قولة والمجدل والقرى الأُخرى القريبة.

كان بعض الأهالي يتوجس من تلك الحركة. وعندما شيّعت العيون الشاحنات التي أقلت الرجال، كان الشؤم يملأ القلوب. وأذكر أن إسماعيل العامر، أحد رجال قريتنا، وقف وخاطب من تبقى من رجال القرية قائلاً: "تعالوا.. ليحمل كل منا طورية وفأساً كي نحفر قبوراً بعدد الرجال الذين ذهبوا إلى الموقع.. لأنهم لن يعودوا أحياء."

لم يخيّب الإنكليز ظن الذين شكّوا في نياتهم، إذ كانوا سلّموا الموقع لليهود، الذين استحكموا في جميع أركانه. أدرك رجالنا ذلك عند اقترابهم من المكان، فتوزعوا في استحكامات قريبة، واشتعلت المعركة بنيران الأسلحة. كان محمود البكر أول من سقط شهيداً من أبناء قريتنا في تلك المعركة. جاءته الرصاصة في فمه وهو يهتف طالباً ذخيرة. ثم سقط حسن السوقية، الذي استقرت الرصاصة في بطنه. أمّا العبد الدحنون فقد قتلته شهامته! لقد أراد أن يستولي على دبابة بسلاحه البسيط، فمزقت بطنه رصاصات مجنّدة يهودية أطلت من الدبابة، وقد ظل ينزف طويلاً على أرض المعركة، إلى أن جاء اليهود الذين شرعوا في تمشيط المكان.. وأجهزوا عليه برصاصات في رأسه.

روى لنا محمّد صلاح ذلك، وكان جُرح في تلك المعركة وظل ينزف وحيداً في حقل قمح قريب، يكتم أنفاسه خوفاً من أن يكتشفوا وجوده. قال أنه عندما سمع أصوات الرصاص تخترق جمجمة العبد الدحنون أحسّ بالرعب، وأخذ يردد آيات من القرآن الكريم. لم يجد محمد صلاح الشيوعي، في تلك اللحظة، ما يعينه سوى ترديد آيات من القرآن الكريم!.

محمد العبد هو الآخر أصيب في تلك المعركة، لكنهم تمكنوا من حمله إلى المستشفى. أمّا محمد صلاح فقد استطاع، بعد وقت طويل من الزحف، الوصول إلى إحدى البيارات القريبة. ومن هناك تم نقله إلى المستشفى في الرملة.

شعر زوجي أبو كايد بالذنب لأنه ترك الرجال يذهبون إلى حتفهم في تلّة فينيسكي ولم يذهب معهم، وأصبح يهيىء يومياً حمولة حافلة تأخذهم إلى الرملة لزيارة ابن عمه ومسؤوله محمد صلاح في المستشفى هناك. وقد تطلّب الأمر تكلفة عالية، فاستنزف ما لدينا من مال. وعندما طلب من شقيقته الأرملة، أم عبدالله، أن

تقرضه بضعة جنيهات لهذا الأمر، وماطلت بالاستجابة، هددها بإطلاق النار عليها. وقفت وتحدته، فأطلق رصاصة على الجدار خلفها، فتطايرت الشظايا وأصابتها من الخلف وتم نقلها إلى المستشفى الذي يرقد فيه محمد صلاح.. فأصبح يزورهما معاً.. أخته وابن عمه.

كانت هذه واحدة من "جنونياته"!

بعد ذلك بشهرين.. ثلاثة، وفي ليلة من الليالي الأولى لشهر رمضان، وكانت الدنيا في عزّ الصيف، استقيظنا وقت السحور على أصوات قصف كانت تأتينا من جهة الساحل، فقدّرنا أن يكون موجهاً إلى القرى الساحلية القريبة.. رنتية.. والطيرة.. والعباسية.. والحديثة...

كانت المزيرعة تقع شرقي سكة الحديد. وقريباً من السكة، كان المجاهدون من أبناء قريتنا قد تمترسوا في الاستحكامات التي أُعدت لمثل هذا اليوم، مسلحين ببنادق "و"ستنّات" أخمص حديدي، كان زوجي أبو كايد اشتراها من مصر قبل عام من ذلك اليوم. ذهب إلى هناك متسللاً مع علي الداود، أحد رجال قريتنا، وسيف البرغوثي من دير غسانة، وبأمر من الشيخ حسن سلامة، تم توزيعها بأثمان رمزية على رجال قريتنا والقرى المجاورة.

المقاتلون من أهل القرية والقرى القريبة، وجدوا أنفسهم محاصرين في الاستحكامات غير قادرين على الحركة، وكان زوجي ضمن قلّة من المسلحين الذين ظلوا في القرية لحمايتها، وتوزعوا فوق سطوح المنازل. غير أن ذلك لم يرق له ولرجال الحراسة داخل القرية، فتوجهوا إلى منطقة الاستحكامات ليكونوا مع الرجال هناك. وقبل ذهابهم، وقف أبو كايد مع ابن عمه محمد العبد محذرين أهل القرية من مغادرتها، وقالا: "إن من يفكِّر في الرحيل سيقتل برصاصنا."

امتد القصف ليشمل قريتي طيرة دندن وبيت نبالا. وكنا نشاهد عن بعد أرتال الدبابات اليهودية المتقدمة وهي تواصل قصفها واحتلالها قرى الساحل وتطوِّق، في الوقت نفسه، المزيرعة وقولة والمجدل.

كان مشهد الدبابات وأصوات قصفها مثيراً للرعب. غير أن ما أثار رعبنا الحقيقي هو ما تناهى إلى أسماعنا عن مجزرة جرت في دير ياسين... وقصص القتل والذبح والاغتصاب التي حدثت هناك. كنت صغيرة وجميلة، فخفت على نفسي! أخذت أولادي وتوجهت إلى بيت أهلي وسط القرية، لأن بناءه المتين وموقعه المتواري كانا

يشعرانني بأمان أكثر. غير أنني وجدت هناك أن الشائعات قد فعلت فعلها، وكان أكثرها تأثيراً تلك التي سرت لتردد أن جميع المقاتلين أبيدوا في الاستحكامات... فدب الرعب، وعمت الفوضى بين الخلق (عرفنا فيما بعد أن اثنين فقط من أبناء قريتنا استشهدا: مطيع العامر، وسعيد فطّم).

شرعت جموع البشر تحمل صررها وتتسلل من القرية متوجهة صوب مرج عبيد ورأس الطنّانة، على أمل العودة بعد قليل من الوقت، ولم يخطر في بال أحد أن ذلك سيكون الخروج الأخير.

كان خوفي مما يمكن أن يحدث أكبر من تهديدات زوجي التي توعدت كل من سيرحل. لملمت أولادي وحملت لهم ما تيسّر، رغيفين من الخبز وصفيحة صغيرة من الماء، وسرت مع السائرين. قلت في نفسي: "ليأتِ ويقتلني ثم يدفنني في مرج عبيد أهون عليّ من أن نلقى مصير أهالي دير ياسين!"

بقينا في العراء ساعات طويلة، وقد هدّنا التعب والعطش والجوع، وكان الناس صائمين. لكن شيخ القرية، يوسف العالم، وقف وأفتى للناس عدم الصيام في هذا الظرف الصعب.. وكان أول من تناول جرعات من الماء تحت شمس الظهيرة العالية.

اشتد القصف واقترب. طال قولة والمزيرعة. قُتلت امرأة من قولة وبضعة رجال آخرين، قتلوا أو جرحوا..

لم يكن الوضع محتملاً في العراء، فاكتروا لنا دابة حملتني وأولادي إلى رنتيس. وقد ظل مصير زوجي مجهولاً بالنسبة إليّ أياماً كثيرة، حسبت فيها أنه مات!

في اليوم التالي، جاءتنا الأنباء عن سقوط اللد والرملة والمنطقة الساحلية بأسرها، الأمر الذي أثار الرعب في رنتيس، حيث التجأنا، وجعل بعض أهلها يرحل عنها.. فانتقلنا معهم إلى كراوة.

أخذ بعض الرجال من مجاهدي قريتنا يتوافدون، باحثين عن عائلاتهم الهائمة على وجوهها. كانوا قد يئسوا من المقاومة وتمكنوا من مغادرة الاستحكامات والانسحاب العشوائي.

أمّا زوجي فقد ركب رأسه واستحكم بعناده المعهود، وعاد وحيداً إلى المزيرعة التي لم يكونوا احتلوها بعد، على الرغم من أنها كانت ساقطة عسكرياً ومطوّقة. استحكم فوق سطح بيت خاله ليحرس القرية وقمحها المتروك على البيادر. ثلاثة أيام بلياليها أمضاها هناك ببنطاله الكاكي القصير، وخوذته الحديدية، وسلاحه المتأهب،

لم يبرح فيها سطح البيت. ولولا ذهاب عوض المنصور، أحد رجال قريتنا، الذي كان تسلل إلى القرية والتقاه مصادفة هناك، وتمكن من إقناعه باستحالة التصدي بمفرده لقوات اليهود التي أخذت تضرب القرية استعداداً لدخولها، ثم تمكنهما معاً من مغادرة القرية بصعوبة تحت وابل النيران، لكان مصيره كما كنت أتوجس آنذاك.

كنت مع جموع المهاجرين في كراوة، نلوذ بظلال الأشجار، عندما رأيته قادماً وقد لوّحت الشمس وجهه وساقيه، فبدا على هيئة أُخرى غير هيئته. وعلى الرغم من همه وتعبه، بادرنا صارخاً: "إلى جهنّم.. لو أن الله أخذكم إلى جهنم لكان أشرف لكم من العيش هنا بهذا الشكل."

توزع أهالي قريتنا في عدد من القرى القريبة. معظمهم أقام إلى جانب عين الزرقاء بدير غسانة، وبعضهم أقام باللُّبَّن، وآخرون بعابود.. وبرنتيس. وكان أبو كايد يتجوّل يومياً بين هذه الأماكن حاملاً بندقيته على كتفه من دون هدف، إلى أن انتقلنا أخيراً إلى دير غسّانة..

مع الأيام، وتحت وطأة الحاجة والجوع، لم نجد بداً من بيع البندقية لنأكل بثمنها خبزاً، إذ لم نخرج من القرية إلاّ بخمسة وثمانين قرشاً!

عشنا في دير غسّانة تسعة أعوام، سكنا خلالها في "خشابية" قدمتها لنا عائلة الشاويش.

في الفترة الأولى لم يجد الرجل عملاً، إلى أن التحق بمنظمة الجهاد المقدس. لم يكن عملهم فيها سوى أن يأكلوا ويشربوا ويجلسوا في الخيام، لكنه كان يتلقى ثلاثة جنيهات شهرياً يحرق واحداً منها في السجائر. وعندما توقفت الجهاد المقدس.. عدنا إلى الجوع من جديد. كان رطل القمح بثلاثين قرشاً، نضيف إليه طحيناً بقرش ونصف قرش ونصنع أقراصاً يأكلها الأولاد. الآن، وبعد أن أصبح الرجل بلا عمل، لم تعد حتى هذه الأقراص ممكنة.

تدبر أبو كايد مبلغاً من شقيقته الأرملة نفسها، وذهب إلى عمّان ليشارك ابن عمه محمد العبد، العائد من الكويت، في فتح دكان صغير في جبل الحسين. وقد مرت سبعة أعوام، هو في عمّان وأنا والأولاد في دير غسانة.. انتقلنا بعدها لنعيش جميعاً في عمّان، إلى أن توفاه الله فيها..

في شهر أيار/مايو، يكون مرّ خمسة وعشرون عاماً على رحيله.. وبعدها بشهرين، ثلاثة، يكون مرّ خمسون عاماً على رحيلنا نحن! ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf